الأستاذ الدكتور غسان الخالد

في مفهوم الحياد

يعتبر الحياد موقفاً سياسياً يُعبّر عنه بسلوكيات معينة، تفضي الى الهدف المعمول عليه، ومضمونه عدم التدخل في شؤون الآخر، لخلاف هذا الآخر، أي بخلاف من يكون وكيف يكون؟ وبخلاف العلاقة التي تربط لهذا الآخر، أكانت علاقة عداوة أم صداقة أو علاقة عادية لا مصالح فيها مشتركة. ولعلّ النظرة السريعة والقراءة الأولى لما ذكرت، توضح جيداً طبيعة أن الحياد ليس محلياً فقط، وإنما إقليمياً ودولياً، وهو ما يعني أن الحياد هو مفهوم خاضع لمبدأ النسبية، ومرتبط بعناصر مؤثرة، كما يفترض وجود عوامل، قد تكون ضرورية للحياد، وعدم توفرها ، يخضعه لعدم النجاح في تطبيقه، وهو ما سيوضح لاحقاً من خلال نماذج الحياد التي سوف أذكرها في مضمون هذا المقال ومن خلال العرض التاريخي للحياد.

إن القارئ والمهتم بهذا المفهوم، و اختصاصيو العلوم السياسية وخصوصاً مجال العلاقات الدولية، يعرفون جيداً أن هذا المفهوم قد ولد أوروبياً وتعاملت معه دولاً أوروبية خلال الأزمة الكبيرة التي عاشتها أوروبا في حروبها الداخلية، الدينية والسياسية منها، والتي استمرت لقرنين من الزمن تقريباً. إذن يعود المفهوم في أصله الى أوروبا، تلك القارة التي تحكّم بها دولتان أساسيتان هما فرنسا و انكلترا، إضافة الى دول عاشت طموحات توسعية بينية ومنها سويسرا التي بات نموذج حيادها مثل يُضرب في الحياد، ولعله من أبرز الأمثلة. وقد استطاعت دول أوروبية أخرى تخليص نفسها وفقاً لمبدأ الحياد من تداعيات الحربين العالميتين الأولى و الثانية ، في حين أن دولاً أخرى لم تستطع تجنيب نفسها تداعيات هاتين الحربين بفعل الموقع الجيوسياسي لها. وهو أيضاً ما سيتوضح لاحقاً.

أنواع الحياد

يختلف تحديد أنواع الحياد وفق العلم الذي يدرسه، فالحياد من وجهة نظر العلوم السياسية ، والعلاقات الدولية ينقسم الى نوعين: دائم و مؤقت.

- النوع الأول أي الحياد الدائم يعمل به في كل الظروف، أي أن من أهم خصائصه الإستمرارية، وهو غالباً ما يكون مشرّعاً في قوانين البلد الحيادي، وربما و على حد تعبير الدكتور خليل حسين، أنه مُقَر ومُعترف به دولياً كحياد النمسا. وقد يمسّ الحياد الدائم من سيادة الدولة و لو نسبياً، وخصوصاً إذا كان على شكل معاهدة بين دولتين. وخرق السيادة قد يكون أكثر وضوحاً ربما في السياسة الخارجية للدولة . لكن تصنيف الحياد وفق العلوم السياسية وفرع العلاقات الدولية خصوصاً وبهذا الشكل المذكور قد ينظر اليه على أنه جامد لجهة التحليل، إذ غالباً ما يعيدنا الى المواد القانونية التي ينص عليها ميثاق الأمم المتحدة . فقراءة المواد القانونية فقط تشبه القراءة الرياضية أو الفيزيائية في العلوم البحثية .

أما من وجهة نظر علم الاجتماع السياسي فتصنيف الحياد يأخذ منحى آخر له علاقة بكل الحقول الاجتماعية والاقتصادية لاحقاً. ولذلك نرى مفردات التصنيف مختلفة كلياً تقريباً، حيث يصنف الحياد وفق علم الاجتماع السياسي الى ثلاثة أنواع هي: الحياد الإيجابي والحياد السلبي والحياد الناشط.

1- الحياد الإيجبي: لقد حاول بعض المفكرين فلسفة معنى الحياد الإيجابي، بإعطائه معنى أو وظيفة مناصرة القضايا العادلة في العالم، مع تبنيه عدم الإنحياز في حدة الصراع بين كتلتين كبيرتين من الدول. كما هو حال الحرب الأولى والثانية فيما عرف بدول المحور والحلفاء. أو كما عرف في ما سمي الحرب الباردة بين الولايات

المتحدة الأميركية و الاتحاد السوفياتي في خمسينات و ستينات وسبعينات القرن الماضي.

أما مناصرة القضايا العادلة فقد بقي مفهوم القضية العادلة مفهوماً نسبياً،اختلفت مقاصده بين الدول، لكن مع المحافظة على قاسم مشترك تمثل في مسألة الاستقلال للشعوب المستعمرة أو المضطهدة في تلك الفترة.

إنبثق عن الحياد الإيجابي منظومة دولية عرفت بمنظومة دول عدم الإنحياز، شكلت الهند مع جلال نهرو، ومصر مع جمال عبد الناصر، ويوغوسلافيا مع جوزف بروس تيتو، أهم دول هذه المنظومة، مع العلم أن هذه الدول، كانت الدول الركيزة المؤسسة للمنظمة. ومن يتمعن جيداً في وضعية هذه الدول يدرك أن لكل منها مشاكلها الخاصة، أو قضيتها الخاصة. فالهند مثلاً كان لها مشاكلها مع الجارة باكستان، ولا تزال قضية كشمير المتنازع عليها محور الصراع بين هاتين الدولتين النوويتين. كما أن مصر كان لها صراع مع الكيان الصهيوني، الذي انتهى بمعاهدة كامب ديفيد في أواخر سبعينات القرن الماضي، علماً أن مصر لم تكن محايدة في الإقليم العربي بالمطلق. هكذا إذن تحدد مفهوم الحياد الإيجابي لمنظومة دول عدم الإنحياز، بين الكتلتين في الحرب الباردة مع جردة مواقف هذه الدول تجاه القضايا الدولية الأخرى، وبالتالي فإن هذا الحياد لم يكن حياداً مطلقاً، بل خضع لمعطيات وعوامل جيوسياسية، كما خضع لمصالح هذه الدول.

2-الحياد السلبي: في الحقيقة لم يكتب عن هذا النوع من الحياد الكثير، ولم ينظر له كما الحياد الإيجابي. وقد ذهب البعض الى اعتباره ذو وجهة محلية أكثر منه إقليمية أو دولية. وقد منح هذا النوع من الحياد بُعداً محلياً، حيث اعتبر أنه حياد السلطة تجاه القوى السياسية المحلية. وعليه بات على السلطة المحايدة في هذه الدولة أو

تلك مهمة تنظيم الخلاف السياسي بين هذه القوى، حيث يقتصر عملها على تشريع قواعد تنظم مسألة الإنتخابات والمشاركة السياسية، كما تنظم مسألة الإنتاج. وبالتالي يصبح من أولى مهمات السلطة العمل على إنتاج منظومة قيم وطنية تراعي دور الأقليات العرقية والمذهبية وتحافظ على مشاركته وعدم تهميشها،ومحاربة الفساد. وبما أن السلطة غالباً ما تعمل على إنتاج نفسها فإن الحياد السلبي لم يأخذ بعده ودوره الطبيعي في الدولة، وأصبحت السلطة منحازة بطبيعة الحال.

3-الحياد الناشط: هو نوع جديد من الحياد ارتبط المفهوم بما عرف بمذكرة البطريرك الراعي التي قدمها للأمم المتحدة مطالباً بتدخلها لحل الأزمة اللبنانية في آب من العام الجاري (2020)، وقد كُتب الكثير من المقالات حول هذه المذكرة والتي شبهتها بالمذكرة الاستراتيجية. وبين مؤيد ومنتقد لها، تبين أنها منحازة كل الإنحياز تجاه الكثير من المسائل التي يعاني منها لبنان، أو تجاه القضايا الخلافية في لبنان. وبعيداً عن كل ما كُتب سأركز في قراءتي لهذه المذكرة من وجهة نظر علم الاجتماع السياسي، ولا أدعي هاهنا عدم الإنحياز، بل الإنحياز الكامل تجاه المواضيع الوطنية والقضايا المركزية التي طرحتها المذكرة البطريركية.

قراءة في مذكرة البطريرك الراعي

أولاً: أعتقد أن هذه المذكرة سوف تكون مشروع قرار في مجلس الأمن وهي تطلب تلميحاً وتبطيناً الحماية الدولية بشكل أو بآخر، معتمدة على مقولة قوة لبنان في ضعفه التي سبق أن كُشف زيفها وعدم صحتها.

ثانياً: طرحت المذكرة حياداً مؤدلجاً بروايات تاريخية تكذبها الأحداث التي مرّ بها لبنان وخصوصاً في فترة ولاية الرئيس شمعون وما عرف بحلف بغداد. ثم تناسى تاريخيا الإعتداءات الإسرائيلية و الإجتياحات والإحتلال برمته، وتناسى دور المقاومة الوطنية أولاً و الإسلامية تالياً في التحرير. وهو يبرر الإحتلال الإسرائيلي بذريعة عدم التزام لبنان بالحياد.

ثالثاً: يدعو البطريرك الى عقد اجتماعي جديد من خلال اعتبار أن إعلان حياد لبنان هو فعل تأسيسي، وهو ما يطرح تساؤلات كثيرة وعلامات إستفهام كثيرة حول طبيعة هذا العقد ونوعيته وكيفيته. وهل المقصود به الفدرلة التي يروج لها البعض منذ عقود؟ مع العلم أن قوى مسيحية أخرى تطالب ومنذ نشأة الكيان بها. وبالتالي فإن المذكرة في هذه الحال هي لسان حال القوات اللبنانية وأطراف أخرى.

رابعاً : يحدد مفهوم الحياد وفق ثلاثة أبعاد :

- البعد الأول: يعني حياد لبنان الكلي والذي يعني عدم التفاعل مع محيطه. كما وينظر الى العدو النظرة ذاتها التي ينظر بها للمحيط العربي الذي ينتمي اليه لبنان.
- البعد الثاني هو شكلي بإمتياز إذ يطالب بالتعاطف مع الشعب الفلسطيني من غير أن يكشف عن هوية هذا التعاطف وعن شكله لأنه معطوف على تعاطف لبنان مع قضايا حقوق الإنسان وحرية الشعوب في العالم... وهو يتناسى أيضاً إحتلال الكيان الصهيوني لأراضي لبنانية. وهذا ما يتوضح في البعد الثالث.
- البعد الثالث: يطالب بتعزيز قدرات الجيش اللبناني بغية رد أي عدوان مساوياً بالرد على الكيان بسواها من الدول . فمن هذه السواها؟ وسرعان ما يقع في فخ ما في الفقرة ج من

3 وتحت عنوان نظام الحياد مصدر استقلال لبنان واستقراره. وتتوضح الأفكار أكثر فأكثر في خامساً.

خامساً: وتحت عنوان ما نحتاج اليه، إذ يعتبر أن لبنان بقي على الحياد حتى عام 1969 أي توقيع إتفاق القاهرة وهو ما يناقض التاريخ.

التركيز على النظام الديمقراطي الليبرالي وكلاهما أوصل البلد الى ما وصلّ اليه من ديمقراطية وليبرالية مشوهة جذرت الفساد و الهدر، وهو ما أسميه "قوطبة" على أي توجه اقتصادي نحو الشرق يركز على التعددية بدل التنوع. والتعددية هي مفهوم انقسامي بعكس التنوع الذي هو مفهوم اندماجي.

بإختصار إن مذكرة البطرك هي دعوة صريحة للتدويل والفدرلة معطوفة على مؤتمر بال عام 2004 والذي كتبت فيه وعنه مجلة الأفكار في عدد تشرين 2004 وخلاصته كيفية احتواء لبنان لسبعة ملايين مسيحي مشرقي من كل الدول المجاورة. وهو ما يعني تهجير من تبقى من المسيحيين في تلك الدول عمداً أو عن غير عمد لخدمة الكيان .

إن الدعوات التي أعقبت إنفجار المرفأ والهجمة الإنسانية إن هي الا تنفيذاً لأجندة سياسية بدأنا نسمع عنها حتى من بعض الحلفاء غير المختلفين مع الكيان ايديولوجياً، ومن مَنْ يرى أن لدينا مشاكل مع اسرائيل وربما لو حلّت هذه المشكلة لانتفت أسباب التطبيع. مع أني أرى أن لبنان قد خطا خطوات مهمة على الصعيد الرسمي كما على الصعيد الخاص . باختصار شديد المذكرة واضحة و الهدف واضح و المستهدف معروف ...

العوامل المساعدة على الحياد

الحياد كفعل سياسي لا يكتب له النجاح ما لم تتحقق شروط النجاح في الدولة التي تنتهجه كسلوك سياسي وكفعل سياسي. ولعل من أهم شروط نجاح الحياد للدولة هو تحقيقها لمجموعة

متكاملة من الأمن الغذائي، والأمن الاجتماعي والأمن العسكري. ومن الملاحظ أن الدول التي انتهجت الحياد كانت دولاً صغيرة الحجم، أي لاحول ولاقوة لها. إنها محاصرة بدول أكبر وأقوى عسكرياً. ولذلك سقط الحياد البلجيكي باجتياح المانيا لها ووصولها الى فرنسا، وكذلك سقط حياد قبرص في سبعينات القرن الماضي عندما كان يرأسها الأسقف مكاريوس بتدخل تركي، أدى الى تقسيم قبرص الى قبرصين، الى حد وصل الأمر به الى تعميم صفة القبرصة على كل الدول التي عاشت لحظات تقسيمية نتيجة حروب بينية في ما بين الجماعات المشكلة للدولة. وهو ما انطبق على لبنان خلال الحرب الأهلية . واستخدام مصطلح قبرصة لبنان...

ينبغي للدولة المحايدة أن تكون محققة للأمن الغذائي حتى لا يجعل منها عرضة لإبتزاز الدول الكبرى في تأمين حاجاتها الغذائية. كما ينبغي عليها أن تكون قد حققت الأمن الاجتماعي، من خلال إنتاج قيم وطنية عليا ومشتركة بين الجماعات المكوّنة لها ، بما في ذلك توفير فرص العمل وكل الخدمات الاجتماعية المرتبطة بالحقل الاجتماعي وتفرعاته. وينبغي أيضاً تحقيق شرط لايقل أهمية عن الأمن الغذائي والأمن الاجتماعي، ألا وهو الأمن الأمني، أي على الدولة المحايدة أن تمتلك عناصر القوة الرادعة لأي عدوان محتمل بخلاف الأطماع والأهداف وإلا سوف تكون لقمة سائغة في أي لحظة غير مناسبة أو مؤاتية .

يرى البعض أن القوة تكمن في الضعف. هي مقولة كثيراً ما وردت في لبنان بالقول:"قوة لبنان في ضعفه" والحقيقة أن هذه المقولة قد أثبتت فشلها وعدم صلاحيتها، إذ لم تمنع العدو الصهيوني من إجتياح لبنان مرات عدة وصولاً الى العاصمة بيروت . كما لم تنجح المقولة في الحياز على دعم دولي لتطبيق قرارات الأمم المتحدة ومجلس الأمن المتعلقة بالصراع بين لبنان و الكيان الصهيوني. ولا زالت السماء اللبنانية حتى اللحظة عرضة للخروقات الإسرائيلية، لا بل مرتعاً لها، وتقتضي الحقيقة العلمية الإشارة الى امتلاك لبنان لعناصر المقاومة الوطنية

والاسلامية لاحقاً قد أبطل مفعول هذه المقولة الرجاء، ولذلك يتعرض الآن الى هذا الحصار الجهنمي الأميركي الذي يخدم فقط الكيان. ومع ذلك، ولأن لبنان بمقاومته يمتلك التوازن الردعي فإنه من الملاحظ الندّية في المفاوضات حول ترسيم الحدود الجارية الآن . فالقوة هي الركن الأساس للحفاظ على الوجود وليس الضعف.

و بالمناسبة فإن الحياد السويسري لم يعد حياداً بفعل الضغط الأميركي والذي تجلى في إيقاف العمل في خط الغاز بين روسيا وأوروبا عبر بحر البلطيق، بفعل العقوبات الأميركية على روسيا وحظر التعاطي مع الشركات المتعاونة... مما يجعل كل حياد في هذا العصر، عصر العولمة آحادية القطب حياداً منحازاً، أي بإختصار يفقد صفته الأساس و يبطل مفعوله. وبمعنى آخر لاحياد في العالم واللاموقف هو موقف بحد ذاته.

الحياد الدولي